

الدكتور الزين عباس عمارة

مع رياح العودة

دار الثقافة

بيروت - لبنان

نشر وطبع
دار الثقافة
بيروت - لبنان
١٩٦٩

اللاهوت

إلى أنصار السلام ...
والعدل ... والمجته ...
إلى دعاة السحرية ... والارثية الكيية ...
في كل زمان ومكان ...
بمناسبة انعقاد مؤتمر السلام العالمي
في الخرطوم .

مقدمة

بقلم الأديب الكبير
عمر الحاج موسى
وزير الإرشاد القومي

بين يدي ديوان شعر .

ديوان (مع رياح العودة) يضم مجموعة شعرية نشرها صاحب الديوان في الصحف السيارة حسب التواريخ المثبتة تحتها تغطية للضرورة الوثائقية واذكاء لروح البحث لدى الناقد الواعي والقارئ المتأنى .

ولقد قرأت الديوان مرة . . ومرة ووقفت وقفة تأمل طويلة اجتلي الصور التي انطبعت عندي واستشعر ابعاد هذا الانطباع .

لذلك فانا لن اعني وأنا اكتب عن هذا الديوان بتقييم الشاعر ومكانته من شعرائنا وانما سأعني بالشعر نفسه وبالإشارة للصور الرمزية والجمالية كأداة للتحليل ومنهج في التقييم دون وضع صورة ذهنية سابقة قد تحجب عن القارئ وضوح الرؤيا وتشوه شفافية الحس الفني .

والديوان في مجموعه يعرض لك الوانا متباينة بعضها عاطفي وبعضها اجتماعي وبعضها سياسي بصرف النظر عن تباين الخصائص واختلاف التقنية وفي مجموعه يعرض لك اسلوب الزين ومنحاه الفكري تلمحهما بوضوح شائع في كل قصيدة . وقد تسترعي انتباهك مرارة شائعة ايضا وهذا ما لا نستطيع الحكم عليه لان الشعر انعكاس لحالة نفسية يعيشها الشاعر وقد عبر عنه بالجودة التي جذبتنا اليه .

ان رنة الحزن والمعاناة التي تكثف ازمة الجيل المعاصر في انصياعه الجبري الذي لا يقاوم للشحن الفردي تظهر بوضوح في نزوعه الحاد الى شرح (الجدار) الذي يمثل الرمز الاكبر في شعره (الجدار والموت) الخ . . . من الرموز التي تجسد الصراع بين التجربة المتمثلة والواقع المعاش وربما كان الشاعر في ممارسة حياته المهنية اكثر احساسا بوطأة التحولات العصرية على نفسية الفرد فجسم المأساة بالشكل المفجع الذي وصل حد الانهيار . . انه قلق الانسان الفريزي ضد كل اشكال الخطر المائل امام تطلعات انسان القرن العشرين .

ولذا كان اول ما وقفت عنده صورة الحيرة والتردد (والضياع) رسمت بدقة في قصيدة (وقفه وعتاب) و(البنوة والسقوط) الخ . . انه ينبغي ان اقول ان معرفتي الشخصية للزين وحبي لشعره واهتمامي بكتاباتة لسنوات طويلة خلت قد يكون من عيوبي في تناول ديوانه بالنقد فاني بالضرورة منحاز ومأخوذ بحكم مسبق علي نتاجه الشعري الذي طالعتة

قبل نشره وكونت فيه رايًا يدور في هذا الاطار ولقد حاولت كثيرا ان اقسو على نفسي وعلى الشاعر قبل بدء الكتابة وحاولت بالتالي الا اباي بالاولى وان احذر الثانية . فالاولى مشروطة بالفعل والارادة والثانية مرتبطة بالحس والعاطفة والحواس هي النوافذ التي نطل منها على العالم فنحرك اصابعنا ونفتح عيوننا ونرهب آذاننا عندما يفاجئنا بقصيدة تتصيد اخطاءنا بملقاط الحاجب وتلفت انظارنا بوخز الابر مثل قصيدة (طفل غانية) ان الحياة الارضية تفرض نوعا من السلوك وثيق الصلة بالارض والطبيعة في عالم تسيطر عليه فضائل اولئك الذين خاضوا بحارا واسعة من التجارب الانسانية وضغطوا على كافة شهواتهم يسوقهم نزوعهم الصوفي الى حظيرة الفردوس واذا لم تكذبني الذاكرة فان قصيدة (اشباح الحانة) في ديوانه (الضياء والحريق) صدى مماثل لهذا الاتجاه .

لقد ازداد في الايام الاخيرة عدد الاقلام التي تلوح بالكارثة الفردية والتحولت العصرية نتيجة التلف الحضاري الذي اصاب صمام الاسرة فالشاعر كرف وبدر شاكر السياب في (مدينة بلا مطر) و(الموسم العمياء) وغيرهم اخرون يمموا وجوههم شطر هذا الاتجاه الانساني في تعرية الدوافع الاجتماعية والاقتصادية اكثر من مجرد الانغماس في فلسفة الرذيلة والفضيلة دون وجود مبررات لانحراف الام وسلامة الطفل . انها نزوع فاضل الى الخلاص وايجاد مناخ بشري صالح لنمو بذرة كانت ثمرة خبيثة .

هذه هموم كل حي في شرقنا المعاصر : ادباء وكتاب يحاولون فصل الالوان القزحية وفك الرموز والطلاسم المحيطة بالموروثات وتفتيت الجدار المثقوب الذي اوشك ان ينهار على مجتمعنا القديم حتى ينطلق الفرد من عقاله بحثا عن ارض الطهر والسماحة مرددا قولة المسيح عليه السلام (من كان منكم بغير خطيئة فليرمها بحجر) .

ان من مآخذي على الزين انه لا يحفظ شعره كتابة او في الذاكرة مما اضاع عليه الكثير في ديوانه الاول والذي اسقط من حسابيه قصائد ذات قيمة موضوعية اكثر التصاقا بوجودان القارئ الذي طالع نتاجه الشعري في الصحف وحفظ بعضه ووعاه وخاب ظنه عندما جرى بنظره سريعا في صفحات (الضياء والحريق) بحثا عن كنزه المفقود وخاب مسعاه . ولعل من محاسن هذا الديوان انه يضم بعض القصائد التي بحث عنها كثيرون وانا منهم فلم يفلحوا في الحصول عليها ولعل الزين نفسه قد وجد ضالته المنشودة .

ان قصيدة مثل (ذات الضفائر المنحفة) ظلت عالقة بذهني ومفتوحة امام عيني كالمنظار السحري الذي يفسر لك كل شيء واذكر انني في احدى الندوات التي كنا نقيمها في منطقة كبوشية وفي مجال الحديث عن اثر التحولات الاجتماعية في لفة الشعر اشرت الى قوله :

احببتها خصرا كقوس كمنجة ظمان ضامر

واشرت الى ان وصف الحبيبة ذات الازداد التي تمشي

مشي السحابة لا ريث ولا عجل وذات (الرقبة الفزاز) قد
اصبحت ذات خصر كقوس الكمنجة بعد التحولات الحضارية
التي هزت ادوات التعبير .

ان الفنان الاصيل هو الذي يصعد بالرمز والتعقيد
النفسي الى مستوى انسجام القارئ نفسه لا الذي يفوض
بالقارئ في دهاليزه الداخلية بهزة انفعالية مثيرة او شحنات
رمزية مروعة . ولقد كان الزين سعيد الحظ حقا عندما تفتح
لديه الوعي القومي والسياسي في فترة زمنية خصبة بالتجارب
حبلى باحاسيس اجيال كثيرة تمخضت عن الاستقلال
السياسي . . والحكم الوطني . . والحكم العسكري وثورة
اكتوبر الظافرة وحكم الاحزاب البائدة ثم ثورة مايو الرائدة
سنوات رسبت في قاع نفسه الثقافي شحنات شعورية عبر عنها
في اروع الصور واجمل اللوحات فقد الهتمه عظمة التجارب تعاضم
الاحساس بالالتزام الادبي تجاه قضايا هامة في حياتنا فتجاوز
فارق السن في شمولية فجاء مكتمل الوعي ناضج التجربة . . .
فلعل هذا ما جعل الشعراء الذين عاصروا سنوات الكفاح من
اجل الاستقلال اقل حظا في النيل من المنابع الثرة التي
تفجرت بعد الجذب الطويل ولم ينعموا بثمرة الهامه الفني
عندما تخطوا مرحلة الشباب بحراراتها وعنفوانها وحدة
معاناتها .

لقد خرج الشعراء في العصر الحديث عن حدودهم
الاقليمية وتخطوا الحواجز الى مسافات بعيدة في كل بقاع
العالم واثروا المكتبة العربية بتراث انساني خالد . . وفي

قصيدة (شاربيل) (وموعد في الارض المحتلة) ردود فعل عنيقة لما يدور في العالم الخارجي في نفسية الشاعر . . . انها خطوة من جانب الشعراء للارتفاع بالشعر العربي نحو العالمية والزين في محاولته الدائبة للاحاطة بكل ما يثقل ضمير الانسان الحديث واجتراره الدائم لعروبتة وأفريقيته لا يمازج بين هذه المشاعر بالدرجة المثيرة فقط بل يصدر فيما يصور في بعض الاحيان في هذا الاتجاه او ذاك عن تعصب ملطخ بزيت القدسيات ، على ان المسألة تصبح في النهاية مشكلة التعبير الخصوصي عند الكاتب لا يجاوب عليها الا بطريقة ذاتية للغاية وهذا ما يجعلني احس بضرورة قراءة الديوان مرة . . ومرة بشكل لا يتجزأ قبل الحكم عليه كقصائد واتجاه فكري واسلوب في معالجة قضايا الحياة .

ان الشاعر في تقييم التجربة السياسية بعد الثورة الاشتراكية يربط جذور المأساة باعماق الارض التي نبتت فيها ويلونها برائحة التراب مما يعمق فينا الاحساس (بالضياع) الذي كان يعاينه قبل بدوغ فجر الثورة فهو يخاطبنا بحدة ولكن من منابر متحررة من كافة المنفصات الايديولوجية التي تنزع عنه لفة الحرية وتثبت بدلها جبرية العقيدة ويرفض الخطوط الصارمة التي تعطي الكلمات دلالة اجتماعية خاصة ونكهة فكرية مميزة .

ان الشاعر ينفذ الى اوهام الناس بشفافية قاع العين الى داخل المخ والوجدان الجماعي ويضع على عاتقه عبء تحويل هذه الذهنية الاتكالية الى مسار جديد لعقلية عصرية متفتحة في محاولة دائبة لتنشيط الحركة في خلايا المجتمع والنزوع المستمر الى تعميق حرية الفكر .

ان الزين يجسد قلقه الواضح من وطأة اقدم الحضارة على
ترابنا الطاهر ، اذن فهو دائما يؤكد انه لا يكفي ان ننظر بعيون
مفتوحة الى امراض المجتمع ولكن الضروري والحتمي ان
نضع اصبعنا في محاولة التشخيص وضغط زناد التجربة
لنسف الوهم العالق في نفوسنا متجاوزين بذلك السطح
والغلاف الخارجي .

وهكذا تتواتر الصور وتتعدد المواقف وانت تقرأ الديوان
لذلك فانا اترك للقارئ ان يستجليها ويقف يتأملها صورة
صورة لا يأخذ النغم فينساقي ولا تفعد به حدة الكتابة التي
تطبع كل شطر منقوم .

ان الدكتور الزين عباس عمارة قد اضاف للمكتبة
السودانية كتابا جديدا جديرا بالقراءة .

عمر الحاج موسى